المرأة وتأملاتى الأدبية

د. أحمد إبراهيم الفقيه

المــرأة هى محــور حياتــى ومثار اهتمامــى.. فطاقتها المعطلة تحت شــعار التقاليد والعــادات جعلت منها عورة يجب سترها.

فى طفولته.. اختلطت فى خياله الطفولى البكر «الحياة البدوية» منظر البادية.. فتداخل فيها لون الصحراء ببلده ليبيا مع خضرة الزرع بقريته «مازدا» وتحولت مع أغانى التراث الشعبية التى ترددها نساء قريته فى مواسم الحصاد والربيع وحواديت الجدة بأساطيرها الخرافية إلى مخزون فى ذهن الأديب والكاتب الصحفى الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه إلى حياة كاملة وفكر عبر عنه فيما بعد سنوات النضج فى قصصه ومقالاته وخواطره وتأملاته ومسرحياته وكتبه.

وكانت المرأة هى محور حواراته ومركز اهتمامه.. تناول فى كل كتاباته هذا الجزء المجبر على تعطيل طاقته تحت ستار التقاليد والعادات التى تجعل من المرأة عورة يجب سترها..

من هذه البيئة البدوية ذات الطابع الخاص فى خيال الكاتب والأديب انطلق.. وأضاف إليها واقعًا ملموسًا استمده من قراءاته المتعددة..بدأت بمكتبة مدرسته «مازدا» الابتدائية التى وجد فيها بين الكتب المتراصة على الأرفف عالمًا آخر رحبًا تعايش فيه مع العديد من الشخصيات الأدبية والسياسية.. التقى فيها القمم من الأدباء والكتاب والساسة والعلماء.. تقابل فى هذا العالم مع الملوك والرؤساء.. تعرف على تاريخهم.. انتقل مع قراءاته إلى جزر مجهولة.. وتحول تدريجيًا هذا العالم إلى جزء محسوس من عالمه.

وكان من الغريب فى هذا الوقت وفى هذا العصر.. الذى وقعت فيه ليبيا لسنوات تحت سيطرة الاستعمار أن توجد فى مثل بلدته «مازدا»- وهى قرية ريفية بدوية - مكتبة بمدرسته الابتدائية زاخرة

وعامرة بهذه الألوان والأشكال من الثقافات العالمية والعربية.. وترجمات لبعض الأساطير العالمية وتبسيطها بما يتناسب مع تنمية وتطوير عقول الأطفال في هذه المرحلة العمرية.. وكان لمصر دور كبير ريادى فى إمداد مثل هذه المكتبات بمدارس ليبيا بكتب لكبار أدباء وكتاب الأطفال بمصر مساهمة منها ومحاولة إلحاق ليبيا بركب الحضارة والتطور والتى أخّر تقدمها سيطرة الاستعمار عليها لفترات طويلة..

كانت هذه المكتبة هى أفضل مكان يراه فى محيطه.. يجلس به لساعات دون شعور بالملل.. ينتقل كالفراشة من كتاب لآخر.. مبهورًا مشدودا بهذا العالم الجميل الجديد.. وكانت سطور الكتب بكلماتها ومفرداتها هى غذاءه الروحى..

وتمكن أحمد إبراهيم الفقيه وهو فى سن السابعة أن يضيف بقراءاته الكثيرة إلى عمره سنوات وسنوات من العلم والمعرفة والخبرة وأن يتزود بمعطيات ثقافية من كل لون وشكل.. فسبق زملاءه فى الدراسة ولأصدقاءه واختلف عن أى أطفال فى مثل عمره فكان الكتاب ابنه وصديقه.. فاشتهر فى قريته بحسن الحديث وجميل التعبير فكان فى كل مساء يجلس مع كبار العائلة من أصدقاء والده أمام محله التجارى يقرأ لهم كتابا أو قصة أعجبته وكانوا يلتفون حوله مبهورين مشدوهين بحكاياته وأساطيره وكأنها جاءت من آخر الدنيا.. من عالم آخر. تحول إلى مركز اهتمام وهو فى سن مبكرة.. فاستمعوا منه إلى كتاب «النظرات والعبرات» للمنفلوطى و«مجدولين» و«تحت ظلال الزيزفون»..

يتحدث الدكتور والأديب الكبير أحمد إبراهيم الفقيه عن ذكرياته فى

تلك المرحلة.. فيقول.. أحببت القراءة لدرجة استيلائها على كل كيانى وعلى كل اهتماماتى كطفل فى تلك المرحلة من عمرى.

ويكمل حديثه قائلا.. أتذكر مدرسة المكتبة التى كانت تعتقد أن كثرة جلوس التلاميذ فترات طويلة داخل المكتبة يعطلهم عن متابعة دروسهم واستيعاب أكبر كم من المعلومات.. كان هذا الاعتقاد خاطئا.. ولكن مدرسة المكتبة كانت تحدد عددا من الساعات فقط للقراءة بالمكتبة.. كنتت أتحايل على ذلك بأن أستعين بزملائى من التلاميذ ونتفق معا على قيام كل واحد منهم باستعارة كتاب من المكتبة وأقوم بعد ذلك بالمرور على بيوتهم وأجمع منهم الكتب ثم أقوم بقراءتها جميعها.. وبهذا أحصل على جرعة كبيرة ومتنوعة من المعلومات دون أن أغضب المدرسة.. وأحقق فى ذات الوقت رغبتى فى القراءة..

ولأن الزمن لا يتوقف.. والأيام والسنون تمر سريعًا.. انتهى أحمد إبراهيم الفقيه من المرحلة الابتدائية وانتقل إلى مرحلة أخرى وبيئة أخرى فالتحق بالمعهد التجارى بمدينة طرابلس وهو فى سن الرابعة عشرة.. وكان المعهد التجارى يتبع اليونسكو وأنشئ لكى يساعد الدول العربية التى وقعت تحت سيطرة الاستعمار لمواكبة ركب التطور العلمى الذى تخلفت عنه.. ومن بينها البلد الشقيق ليبيا..

فى هذه المدينة «طرابلس».. بدأت وقفة جديدة مع النفس.. عرف من خلالها أن الأدب هو حرفته التى لن يجيد غيرها.. وأن الكتابة هى قدره المحتوم..

وكانت أولى خطواته فى طريق الأدب حين انتقل إلى مدينة طرابلس.. حيث تلمس الخطى حثيثا إلى الساحة الأدبية.. ولم تمض ثلاث سنوات

حتى أصبح أحمد إبراهيم الفقيه عضوًا فى نادى التمثيل الذى ألتقى فيه بعدد من الزملاء جمعهم قدر واحد هو عالم الأدب والفن والكتابة.. وبداخل هذا النادى.. بدأت الممارسة الحقيقية الإبداعية فاشترك أحمد إبراهيم الفقيه مع زملائه بالنادى فى عدد من الإصدارات فألفوا التمثيليات وكتبوا عدد من المسرحيات.. كما تعرف على العديد من الكتاب والأدباء المعروفين فى ليبيا.. ومن خلال توجيهاتهم ومشورتهم.. انتظمت كتابته فى الجرائد ما بين المقالة والقصة القصيرة.

كما ساعده أساتذته من كبار الأدباء والكتاب فى الاطلاع على الأدب الروسى فقرأ لتشيكوف وتولستوى.. وسار إلى عوالم جديدة من خريطة الأدب العلمى.. وكان أول مقالته له بجريدة الطليعة..

يحكى الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه ذكرياته عن هذا المقال الأول فى حياته الأدبية.. فيقول.. كان هذا المقال بداية حقيقية لاحترافى الادب والصحافة.. فوجئت به وقد نشر بجريدة الطليعة ولكن بدون توقيعى.. شعرت بحزن شديد وبظلم فادح.. قررت الذهاب إلى رئيس تحرير الجريدة لاستطلاع الأمر ولمعرفة السبب..

وأمام رئيس التحرير بداخل مكتبه.. وجدت نفسى معه وجهًا لوجه.. سألته.. لماذا شطب اسمى من على مقالى وكان رده مفاجئًا لى.. نظر إلىّ من رأسى حتى أخمص قدمى.. سألنى.. من أنت؟.. وحين أجبته.. أصابته دهشة كبرى.. قال لى إنك رائع حقا.. وقرر أن التحق بجريدته.. وساعدنى كى أنشر كل إنتاجى الأدبى المتنوع ما بين المقالة والقصة القصيرة.. ونشرت لى أول قصة قصيرة بجريدة الطليعة..

ثم كتبت عدة مقالات بنفس الجريدة تحت عنوان «خواطر وتأملات».

ومن طرابلس.. إلى مدينة فزان.. كانت النقلة الثانية إلى بيئة أدبية جديدة، حيث كانت فزان مركزًا رئيسيًا للأدباء والكتّاب الليبيين.. فنشر فى جريدة «فزان» قصة «هارب إلى المدينة» وكانت أول قصة قصيرة تنشر له بالجريدة.. عام ١٩٦٠م.. وهو لا يزال فى سن السابعة عشرة.

ولأن عمر الإنسان هو فى الواقع مجموعة من المراحل فإن انتقاله إلى فزان كان آخر عهده بتلك المرحلة من حياته إذ إنه قفز إلى منطقة أخرى رحبة فى حياته الأدبية.. عندما رشحته اليونسكو لبعثة إلى القاهرة لدراسة السمعيات والبصريات فى مركز أنشأته أيضا اليونسكو لتنمية المجتمعات العربية..وبتوجيه أحمد إبراهيم الفقيه إلى مصر منارة العلم والثقافة والأدب اتسعت دائرة معارفه وأصبح اتصاله برموز الأدب والفكر اتصالاً مباشرًا.. بعد أن كان يقرأ عنهم فقط.. تمكن من رؤيتهم رؤية العين وتزود من نبع ثقافتهم.. غاص فى بحور العلم والبحث والمعرفة.. فنشأ تواصل فى الفكر بهؤلاء الأدباء والكتاب أمثال الأديب الكبير نجيب محفوظ والأديب يوسف السباعى.. وغيرهم من قمم الأدب والفكر..

بلورت هذه المرحلة مشوار حياة الأديب أحمد إبراهيم الفقيه ووضعت إطارًا مميزًا لفكره واختياراته، وأصبحت المرأة هى محوره الرئيسى فى كل القضايا التى طرحها فى العديد من المقالات فى كل الصحف وفى يومياته بجريدة الشرق الأوسط وعدد من الجرائد المصرية المعروفة.. وشغلت المرأة الليبية.. بل المرأة العربية.. جزءًا كبيرًا من طرحه الأدبى

ممثـلا فى المقالات والتأملات والقصـص القصيرة.. تناول القيود المتمثلة فى التقاليد العربية المغالى فيها، تلك التقاليد التى تحد من تطلعات المرأة وطموحاتها وانطلاقها فى طريق الرقى والتطور..

وأراد الأديـب الليبـى أحمد إبراهيم الفقيـه أن يتوج رحلته الأدبية بدراسة الأدب العربى الحديث ودراسة الفن المسرحى.. فقد اتخذ قراره بألا يترك منهلاً من مناهل العلم إلا وينهل منه حتى الثمالة.. لهذا قرر السفر إلى لندن للحصول على الدكتوراه من جامعة أدنبره ببريطانيا.

يقـول الأديـب والكاتب الصحفى الدكتور أحمـد إبراهيم الفقيه عن مؤلفاتـه فى هذه المرحلـة: بعد عودتى من بريطانيا تم تعيينى رئيسـا لتحرير صحيفة الأسـبوع الثقافى ثم رئيسًا لتحرير مجلة الثقافة العربية ومديرًا للمعهد الوطنى للموسيقى والتمثيل.

وكانت أول مجموعة قصصية عام ١٩٦٥م تحت عناوين:

- البحر لا ماء فيه.
- اربطوا أحزمة المقاعد.
- اختفت النجوم فأين أنت؟
- امرأة من الضوء.

ومن مؤلفاته أيضا.. ثلاثية روائية تحمل العناوين:

١- سأهبك مدينة أخرى.

٢- هذه تخوم تمللنى.

٣- نفق تضيئه امرأة واحدة.

وله كتب أخرى منها..

- تجيئين كالماء.. وتذهبين كالريح.
- شوق الأجنحة إلى الرحيل.
- أبناء الماء .. وأبناء النار.
- معارك الغد.
- الصحراء وأشجار النفط..
- كلمات من ليلى سليمان.

ومن مؤلفاته المسرحية:

- الغزلان.
- هند ومنصور.
- غناء النجوم.

□□□